

البَيِّنَات

الجزء الثاني

السنة الاولى

— اول ابريل سنة ١٨٩٧ —

بسم الله القوي النفسانية في الاطفال

لا شيء احق بالانسان وأليق به من معرفته حقيقة نفسه ولا شيء أكثر امتناعاً عليه وابتعد عن مراعي بصره من ادراك ما وسعهُ هيكَلهُ من القوى العجيبة والتراكيب الغريبة ولذلك قالوا الانسان اشياء كثيرة فلكثرة ما هو به كثير يحجز عن ادراك ما هو به واحد. لاجرم أن هذا الهيكل العجيب والبناء البديع الذي هو آية الله في خلقه مؤلف من دقائق لا يخصصها المد ولا يحيط بها الادراك كل منها يقوم بعمل خاص ويستقل بحياة خاصة ويعمل بالقوى الفاعلة في جميع الاجسام. وهذه الدقائق على كثرتها وتباين اشكالها واختلاف اوضاعها وتنوع العناصر المكونة هي منها تضام فتكون منها الاعضاء وتكافأ في القيام بما اريدت له من المنافع التي تضمن لجمالها انتظام الاعمال الحيوية الى الاجل الذي أتبع لها. فمعرفة الانسان نفسه من حيث هو مركب على كمال خلقه وتام خلقه لا يتأخر الا حاطة بها لما قل لا يقف دونها من العقبات المنية ولا سبياً في ما اختص منها بالنفس الناطقة التي هامت العقول في اودية

البحث عنها والتطلع الى غوامض اسرارها فهي المشكلة المعضلة التي ما برح الطبيعيون والفلاسفة والمتكلمون يتجادون اطراف حلها كل فريق على نحو ما فتح عليه مقدار علمه وثقوب ذهنه.

لا جرم ان النفس البشرية مع ملازمتها لبدن الانسان وحلولها فيه من ابتداء تكوينه انما تُعرف بالتموى التي تصدر عنها والظواهر التي تبديها ونحن انما نبحث عنها الآن بحثاً علمياً في ايسر احوالها منذ تجليها على هذا الكائن الحي وهو جنين في احشاء امه الى ما بعد ميلاده بثلاثة اشهر مقتصرين في ذلك على ما قلّ ودلّ من غير تعرض للمذاهب الفلسفية والمغالطات الجدلية اذ ليس من غرضنا الجولان في فيافي الخيال ولكننا انما نؤثر تقرير الحقائق العلمية الثابتة ببرهان المايينة والامتحان

ذهب أرسطو الى ان النفس تظهر في الجنين بعد اربعين يوماً من حملها وعليه جمهور المتقدمين ومنهم حكماء العرب والقديس توما اللاهوتي^١ ومن الثابت اليوم ان الجنين يتحرك في الاسبوع الثامن حركة رحيّة فيتحبّز الحبل السريّ الشكل اللولبي والدليل على ان هذا الشكل من حركته ان الحبل المذكور لا يكون كذلك في الكثيرات الاجنة في الحمل الواحد اذ لا يبقى لأجنّتها مجالاً للحركة وربما تحرك حركة اختلاج وارتعاش منذ الاسبوع الرابع وهو وقت تكون الاطراف ولا تشعر الأم بارتكاض الجنين الا منذ الاسبوع الثامن عشر وهي حركة تزداد بمقدار نمائه حتى يولد وربما دلت على بعض المؤثرات الخارجية كالاحساس بالبرد. اما حقيقة هذه الحركات وهل هي صادرة عن غير وجدان او

١ زعم ارسطو ان الجنين يكون ذا نفس في اليوم الاربعين اذا كان ذكراً وفي اليوم الثمانين او التسعين اذا كان انثى وتابيه في ذلك القديس توما اللاهوتي

هل يجوز ان تظهر قوى النفس قبل الولادة فالباحثون في منافع الاعضاء على انها قسرية من حيث طبيعتها منعكسة من حيث مصدرها والتكلمون يقولون ان الجنين يشعر باللذة والالم ولا ريب في ان ذلك لا يكون الا عن وجدان فهو ذو نفس كاملة . ولا ينكر ان الوجدان موجود حيث في ابسط احواله وانما هو أثري يأخذ في النماء منذ ذلك الحين ولا يزال يزداد ويتكامل بعد الولادة حتى يصير الطفل قادراً على تمييز نفسه عن غيره من الكائنات . وعليه يكون مبدأ القوى النفسية الفعل العصبي المنعكس حيث لا يكون للعقل والارادة سلطان ولو كان للحركة الصادرة عنه علة غائية مقصودة اذا لافعال لا يكون بدون فاعل .

ثم ان الجنين يولد لتام حمله طفلاً لا قوام له في ذاته لانه لا يستطيع ان يستقل بنفسه متحركاً حركة يتوصل بها الى جلب النافع ودفع الضار وحواسه لا تعينه على معرفة الموجودات مما حواله فلا تطرق بها المحسوسات الى قوى النفس الباطنة وكأنه قد اُلقي في تيار هذا العالم بين اضطراب امواجه وليس له من نفسه ما يساعده على العوم فيه فاذا لم تراه أمه يهلك . واول ما يديه عند الولادة استهلاله بصياح يدل على تألمه لتغير البيئة عليه وملامسة الهواء جلده وقوده الى مسالك التنفس حتى اقصى حوصلاتها وتأثير اشعة النور على شبكيته الى غير ذلك مما لم يالفه من قبل . وكان المولود ينعر لساعته من وحشة يجدها لفراق وطنه الذي كان فيه او كأنه يشكو ضعفه في تنازع البقاء ومغالبة الطبايع وفي ذلك مجال ينفع فيه القول للفلاسفة والشعراء بالحكم وما احسن قول ابن جريج الرومي وقد ذكر هذه الحالة وما تأوّل به من لطيف الحكمة
لما تُؤذَن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يُوضَعُ

والآ فَمَا يُكَيِّدُ مِنْهَا وَانْهَاجُ لَأَفْسَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَاسْعُ
اِذَا عَيْنَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يُفَزِّعُ^١

ثم انه يكون في بداءة هذا الطَّوَر من حياته قاصراً همه على الغذاء والنوم
فلا يظهر من آثار قُوَى النفس حينئذٍ إلا الاعمال التي يسميها علماء المنافع
بالمعكسة والفلاسفة بالقُوَى البهيمية او الشهوية . على ان حاسة اللمس تكون
موجودة لان الجُسَيَات والالياف العصبية تُكوِّن في الشهر الثامن من الحمل
وتنمي نماءً سريعاً فيبلغ وزن الدماغ عند الولادة ٣٨١ غراماً وفي السنة الاولى
بعد الولادة ٩٤٥ غراماً وتظهر تلافيف الدماغ في الجنين منذ الاسبوع العشرين
وتزداد غوراً وامتداداً بتقدم العمر ومنذ ذلك الوقت تُعين المراكز العصبية
التي ترد اليها المؤثرات الخارجية وتصدر عنها الحركات المتساقطة . ولذلك كان
مبدأ القُوَى النفسية ورسمها ظاهراً منذ الولادة لما هو معلوم من ان اعمال
العقل لا تقوم إلا بالجميع العصبي قول علماء المنافع انها موقوفة على حركة الدقائق
العصبية غير سديد لان بين حركة الدقائق والوجدان يوماً سحيقاً

ومعلوم ان الانسان في مبدأ الفطرة خالٍ من تحقق الاشياء إلا انه
مجهزٌ بآلاتٍ يُدرك بها كيفياتها بما بينها من المناسبات والمباينات فينزع المعلومات
الصادقة المحققة . وهذه الآلات هي الحواس الخمس التي تنقل المحسوسات الى الحس
المشترك فيعرضها على القُوَى العقلية حيث يقع الادراك والتمييز والحكم والارادة
وتصدر الافعال المحركة وغيرها . ولكل من هذه القُوَى مقررٌ خاص في الدماغ يُعين

(١) وتروى هذه الابيات بثلاث قوافٍ غير هذه قيل في الاولى منها يولد وفي
الثانية ارغد وفي الثالثة يهدد فيكون فيها على هذا نوع التخيير المشهور عند
اهل البديع

بعد الولادة اذ لا سبيل قبلها للتأثر بالمحسوسات الخارجية فقد ثبت ان الحيوانات التي تولد عمياً كالكلاب لا يتعين مقرُّ القوَّة المحركة في قشرة ادمغتها الا بعد ان تبصر بثلاثة ايام فالحركات التي تبديها قبل ذلك انما تكون منعكسة مصدرها النخاع المستطيل لا الدماغ لانها غير خاضعة للارادة خلافاً للحيوانات التي تولد مبصرة كالخنزير والقنفذ فان حركاتها تكون ارادية صادرة عن مقرِّ معين في الدماغ ينشأ حين الولادة باقتضاء المنفعة المترتبة عليه كما هو الحال في الاعضاء التي يتوقف وجودها على عملٍ تفعل به اذ تكون المنفعة هي العلة الفاعلة في التكوين . ولا ينكر أن للإرث شأناً في ذلك فان العضو يتها بواسطة العمل قبل ان يقع على الحيوان تأثير من الخارج

واللس هو اول الحواس منشأ واعظمها للحيوان نفعاً وكثيراً من الحيوانات السافلة ليس لها من الحواس غيره . على انه يظهر في النوع الانساني في الشهر الخامس من الحياة الجنينية ويكون أثراً غير منتظم الى ما بعد الولادة بشهرين فيصير حينئذ وسيلة لادراك اول ما يتها للاطفال ادراكه من المحسوسات الخارجية

وينشأ الذوق على اثر نشوء اللس لان الحاجة ماسة اليه منذ الولادة فاذا دخلت حينئذ اصبع الى فم المولود مصها كأنه يحاول الرضاع ثم يتبرم من ذلك بعد ايام كأنه قد شعر بالفرق بين الوهم والحقيقة . واذا اعطي لبن البقرة غير محلى بقليل من السكر مجّه وذلك دليل على سرعة نماء هذه الحاسة فيه . وبعد قليل يظهر تعلقه بمرضعه واذا اتى عليه شهران منذ ولادته لم يعد يطبق استبدالها وليس الامر كذلك من قبل . على ان هذه الحاسة تجلب للطفل لذة لا تجلبها حاسة اخرى في بدء امره .

والشمّ انما ينشأ بعد نشوء الذوق بمدة فهو متم له اذ يكون وسيلة لمعرفة
الطفل بمرضعه بعد شهرين من ولادته وقد رُوي انه كان لداروين طفل
يستروح امه عن بعد ٨٠ ميليمتراً فيحديق بصره اليها ويحرك شفاهه طلباً للرضاع
ومعلوم ان طفل الانسان يولد غير مغض العينين فاذا عرّض للنور عند
ولادته اتقبضت حدقاته وطرف بجفنيه وهو دليل على تأثر الشبكية ولكنه في
الحقيقة لا يبصر لان مقرّ البصر في الدماغ لا يتعين حينئذ وانما يتعين بعد
الممارسة والتكرار وألفة الاشياء المبصرة على التدرج حتى تظهر قوة التنبه عند
نهاية الشهر الاول بعد الولادة . ولا مرأى في ان حاسة البصر هي رائد العقل
في ادراك المحسوسات لانها الوسيلة لادراك الابداد ومعرفة السطوح ولايتيأ ذلك
الا في الشهر الثاني وهي تشترك مع حاسة اللمس في تمهيد السبل لمعرفة الطفل
باستقلال جسده عن الاجسام حواله .

اما حاسة السمع فتظهر في الطفل بعد ثلاثة ايام من ولادته بدليل انه
يصيح للناغاة ويثور جأشه بالاصخب على انها اقل نغماً من حاسة البصر لاقتصارها
على معرفة الاصوات

وهناك قوى نفسانية آخر تظهر في الاطفال منذ نشأتهم مصدرها الفطرة
وغايتها المحافظة على البقاء وليس لها علاقة بالوجدان ولكنها تنقل اليهم بطريقة
الإرث الطبيعي وقد سميت بالخلق والسليقة والفريضة وسماها الحكماء بالقوى الشهوية
والبعمية ومن خصائصها التماس المنافع ودرء المضار . ومنها التنفس وهو اول
تباشير الحياة يظهر حال الولادة اذ يباشر الهواء جسم الطفل . والنوم ويترجح
حدوثه قبل الولادة فيعمل به عن الفترة في حركات الجنين وهو لا يستوقف
قوى النفس لان بعض الاطفال تظهر عليهم ابتسامة في النوم كأنهم يرون رؤى

مفرحة وبعضهم يحركون شفاههم للرضاع وأحياناً تُرى المقلّة تتحرك تحت الجفون الوَسْنَى . والغالب على الاطفال النوم كثيراً ولا سيما في النهار حتى يبلغوا اليوم العشرين من ولادتهم فيقلُّ بالتدريج بعد ذلك . ومنها الخوف وهو في الاطفال مسببٌ عن امور لا يكثرث لها غيرهم كالتقاط والفسل . والبكاء وهو لا يكون الا بعد نشوء الغدد الدمعية عقب الولادة بعشرين يوماً وما كان قبل ذلك فهو صياح وصراخ . والابتسام وهو لا يكون قبل الشهر الاول . والضحك وهو لا يظهر الا بعد نهاية الشهر الثاني الى غير ذلك

والطفل يبقى في اول اطوار الحياة مدةً تحت ملكة الافعال العصبية المنمكة واحكام الغريزة لا يدرك من حقيقته ما يعرف به ذاتيته ولا يميز بين جسم . وآخر فصل حواسه أثري ووجدانه مقود الى ان يصير قادراً على تحقق بعد الاجسام واختلاف سطوحها بواسطة البصر وذلك لا يتأتى له الا عند نهاية الشهر الثاني من ولادته . ويستدلُّ عليه في الاسبوع السادس بعد الولادة بحركة ارادية تظهر بتوجه الطفل رأسه نحو أمه اذا سمع صوتها فيتعلم ثم ان يوجه عينه نحو الاشياء المرئية ويمرُّن على ذلك الى ان يصير قادراً على تسديد بصره فتظهر حينئذٍ علامات التنبه في بدء نشأته

ويصاحب نماء حاسة البصر على ما تقدم ارتقاء حاسة اللمس فالطفل في بدء حياته يمسك الشيء الذي يوضع في راحته بدون وجدان فالتقباض يده حينئذٍ انما هو فعلٌ عصبى منعكس غير خاضع للارادة ثم يصير بتكرار التجربة والممارسة عملاً ارادياً يصاحبه نمو الحس العضلي فتظهر الحركات العضلية المتساوقة ومتى بلغ الطفل الشهر الثالث من عمره قويت حواسه على تحقق المحسوسات وخضعت الافعال العصبية المنمكة لسلطان العقل والارادة وانفتحت

له ابواب الهداية بما يُعرض عليه من المؤثرات التي يستفيد منها العلم بما يكون نافعا او ضارا فيألف النافع وينفر من الضار ولا تزال القوى العقلية تنمي بالممارسة والاكتساب طوراً فطوراً والاستعداد الطبيعي يمد امامها سبل الارتقاء حتى تبلغ الشأو العجيب . ومن الغريب ان الانسان في بدء امره ينسى كثيراً من الحوادث والآثار التي ترد عليه فلا يحفظ منها الا ما كان مفيداً له في امر تنازع البقاء . ولذلك كانت الذاكرة ضعيفة في اول العمر

ومعلوم ان هذه القوى تكون في الحيوانات غريزية في اصل فطرتها فالغراخ مثلاً تلتقط الحب حالما تنقف وأجراة الكلاب تمشي عند ما تولد والمهر يستوي على قوائمه حينئذ والقرد يتسلق الاشجار بحفة منذ ولادته . ولكن ذلك فيها يقف عند درجة القوة البهيمية فلا يتعداها الى القوى السامية المميزة للانسان وهي التي تدخل تحت الارادة والعقل وتأخذ في البناء والارتقاء منذ اول اطوار حياته على ما تقدم يانه حتى تبلغ فيه الى درجة الكمال

المصريون

(تابع لما قبل)

والقبط من حيث المذهب ينقسمون اليوم الى ثلاث فرق ارثوذكس وانجيليين وكاثوليك والارثوذكس هم اقدمهم عهداً واكثرهم عدداً واشدهم

١ زعم بعضهم ان القبط يبلغون الان ٧٠٠,٠٠٠ فاكثروا ولم تنقف على ما ثبت هذا القول في احصاء يعتمد عليه والذي تحققتاه على ما في المؤلفات الموثوق بها انهم لا يزيدون على ١٥٠,٠٠٠ كما تقدم لنا ذكره (راجع موسوعات العلوم الفرنسية الكبيرة في لفظة «كنيسة القبط» صفحة ٦٢٦ من المجلد ١٥) الا ان فلاماريون ذكر في معجمه الجارى الان طبعه انهم يبلغون ١٦٠,٠٠٠ وعلى كل حال فالحقيقة